

والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة أو الخدم (شك أبو عبيد)
فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر^(١٦)
فمن خلصت نيته^(١٥) في الحق ولو على نفسه كراه الله ما بينه وبين الناس .
ومن تزين لهم بما ليس في نفسه شأنه الله^(١٦) فإن الله تعالى لا يقبل من
من العباد إلا من كان خالصاً . فإظنك بثواب عند الله^(١٧) في عاجل رزقه
وخزائن رحمته . والسلام عليك ورحمة الله^(١٨)»

قال ابن القيم بعدما أورد هذا الكتاب في اعلام الموقعين : « وهذا
كتاب جليل تلقاه العلماء بالتبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم
والمنقذ أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه » ثم شرحه شرحاً مطولاً .
وقد اعتمدنا في نصه هنا على نسخة اعلام الموقعين لأننا رأيناها أصح
وذكرنا ما وجدناه من الاختلاف بينها وبين نسخة « كنز العمال » في
الهامش وليس فيه شيء جوهرى .

القسم العمومي

﴿ آثار محمد علي في مصر ﴾

لفظ الناس هذه الايام في محمد علي وماله من الآثار في مصر
وأهلها وأكثر الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بنت المادح
على الاطراء ، وماذا حمل القادح على الهجاء ، غير انه لم يبحث باحث في
حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت

(١٤) في الكنز (ويحسن له الذخر) (١٥) في الكنز (نفسه) (١٦) سقط لفظ الجلالة من
نسخة الكنز (١٧) في الكنز (وما ظنك بثواب الله) (١٨) آخر الرواية في الكنز (والسلام)

وما نشأ عن محورها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئاً في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع ، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع ، كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الفرنسيين حكومات الاشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومة تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء يملك كل أمير منهم قسماً يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تموفيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وتفروته وتزرع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما في يد جاره من الامراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما للثوب وإما للدفاع . واكن الامراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستماتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم . ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة فاضطر الامراء أن يخفقوا من ظلمهم وان يتخذوا لهم من الاهل انصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . أحسن الاهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا في الدالة على

الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم فعظمت قوة الإرادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيّدوا الأمراء والملوك معاً ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية وكانت البلاد متوزعة بين عدة أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمدّ يده إلى ما في يد الآخر أو يدفع به صواته فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المالك ما استطاع ليُمَدّ منهم جنده ولكن كانت تُعوزُهُ مؤثمتهم إذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون إليه فاتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الأمراء إليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويلو جاههم ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه

في التدبير : واستجلاب النصير ، وإعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده والتمسك من إخضاع غيره ، أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفاً من تمدي أعوان خصمه عليهم فوقعت القسمة بين الأهالي ولا تزال أسماء الأقسام معروفة إلى اليوم — بسعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شتماً وفي العزائم قوة ويكسب القوى البدنية والمعنوية

حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استبدال لأن يتكوّن منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرّف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة . دخل البلاد بسهولة لم يكن يندظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل ، حتى ظهر فيه القلق وعظمت حوله القلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ولم يهدأ رؤساء المساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره الى كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطيا اذ العربان لعساكره من كل طريق ، وسلبهم ارواحهم بكل سبيل ، واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً للحكم العائليّة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونته الجيش الانكليزي وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

ما الذي كانت تندظره البلاد من نوع حكومتها؟ كانت تنظر ان يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الاحزاب طاقمهم في سيرهم ابلوغ آمالهم وقد كان ذلك يكون لو أمهاتهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ويرتفع الحجاب الذي أسدله الجهل دونهم . أو كانت تنظر ان يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة يحكمها حكومة منها ويأخذ في تقوية مصباح

العلم بينها حتى ترتقى بحكم التدرج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى
 ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع ان يحى ولكن استطاع أن يميت.
 كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ
 يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من
 خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبمحبب آخر على من كان معه أولاً وأعانته
 على الحسم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية توجه
 عنايته الى رؤساء البوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا)
 واتخذ من المحافظة على الأمن سبباً لجمع السلاح من الأهالي وتكرر
 ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الاهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجوز
 على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً
 يعرف نفسه حتى خلع من بدنه أو نفاذ مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه
 أخذ يرفع الاسافل ويعلمهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبهه
 فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللثام ولم يبق في
 البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الاموال وجمع العساكر بآية طريقة
 وعلى أي وجه فحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة
 واستقلال نفس ليصير البلاد المصرية جميعاً أقطاعاً واحداً له ولأولاده
 على أثر اقطاعات كثيرة كانت لامراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشترأت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع
 للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين
 فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات
 المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك

قوت يومه ملكامن الملوك في بلادنا يفعل مايشاء ولا يُسأل عما يفعل .
وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكِم وتمتع الأجنبي
بمقوق الوطني التي حرم منها وانقلب الوطني غريباً في داره، غير مطمئن
في قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان - ذل ضربه الحكومة
الاستبدادية المطلقة وذلّ سامهم الأجنبي إياه ليصل الى مايريده منهم
غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : انه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم غني بالطب لاجل
الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الاحيان عند ما يراد ايقاع
الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الري حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ،
ليستغل أقطاعه الكبير،

هل تفكر يوماً في إصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرثودية ؟ هل
تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله
أن يجعل للاهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟
هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر
العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك بل كان رجال الحكومة إيمان الارنود
أو الجراكسة أو الأرمن المورلية أو ما أشبه هذه الاوشاب وهم الذين
يسمهم بمض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء وكانوا يحكمون بما
يهوون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون وإنما يتفنون مرضاة الامير،
صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة ؟
أين البيوت المصرية التي كانت لها القدم السابقة في ادارة حكومتها أو سياستها أو

سياسة جندها مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرقيقة العمادة الثابتة الاوتاد،
 أرسل جماعة من طلاب العلم الى اوربا ليتعلموا فيها . فهل أطلق لهم الحرية أن
 يمشوا في البلاد ما استفادوا ؛ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها
 ارادة فيما تصنع . ووجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل ، ووجد بعض المهندسين
 الماهرين وايسوا بكثير ، والسبب في ذلك ان محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب
 ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على
 المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطيب عند تركيب أجزاء العلاج
 فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أوائك النفر القليل من النابيين ، وكان
 ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟
 فان وجدنا نبغ فهل هو من المصريين ؟ عدوا ان شئتم أحياء أو أمواتا
 وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب
 ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وغلقت عنها الأبواب الى أواخر
 عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفرغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنشرتها
 بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على انها ترجت برغبة بعض الرؤساء
 من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد
 علي لم توجد في البلاد قراء ولا متفيعين بتلك الكتب والفنون
 كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق واقفاء القرى (الأقفاء الناس المجهورون)
 كما يتخطفون عساكر الجيش فهل هذا مما يجب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال
 أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش
 حمل الأهالي على الزراعة ولكن يأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك
 الأتبان كما يهرب غيرهم من الهوء الاصفر ، والموت الأحر ، وقوانين الحكومة
 لذلك المهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ؟ ولكن هل حبب الى المصريين العمل

والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟ وهل أوجد أساندة يحفظون علوم
الصنعة وينشرونها في البلاد؟ أين هم؟ ومن كانوا؟ وأين آثارهم؟ لا بل بَقِضَ الى
المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته فكانوا يتربصون
يوماً لا يعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعتين
الساعة التي جاءت بهم اليه ،

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك، وأنشأ الأسطولاً
ضخماً ثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار ، فهل علم المصريون
حبَّ التجنُّد وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب وحبَّ اليهم الخدمة في الجندية
وعلمهم الافتخار بها؟ لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا
عليهم معتقدين انهم يساقون الى الموت بعد ان كانوا ينتظمون في أحزاب الأسماء وبحاربون
ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرز مصر
لا يخرج منها الا بالموت . هل شعر مصري بمظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل
خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش
بلدي أو أسطوله؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري بعد ذلك الجيش وتلك القوة
عوناً لظالمه فهي قوة خصمه . كذلك كان يمدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر .
ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب
الجندية الى رتبة البكباشي على الأقل؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين الأوسا
الأثر . أثر كله شر في شر لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندمرت

ظهر الأثر العظيم عند ما جاء الانكليز لاختاد ثورة عرابي . دخل الانكليز
مصر بأسهل ما يدخل به دأمر على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس
تبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأينا عند دخول
الفرنساويين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير وجهه
الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحي بعض الأحداث من ان يقول ان محمد علي جعل من جدران سلطانه
بنية من الدين ، أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي؟ دين التحصيل ، دين الكرباج .

دين من لادين له الا ما بهواه وبريده . والا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل ؟ لا يذكرون الا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا اللادين . نعم ان الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وانما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على ساطعانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامة لا يساوي جزأ من الالف من ارادها . وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجب لاسمهم على الموأد لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجراً زارعاً وجندياً باسلاً . ومستبداً ماهراً لكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدما . وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره متمنا الله بخيره وحمانا من شره والسلام (مؤرخ)

(بقية الاجتماع الثالث للجمعية أم القرى)

(المنعقد في مكة المكرمة في ١٨ ذي القعدة سنة ١٣١٦)

أجاب (السعيد الانكليزي) ان المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لا يميزهم المال اللازم للتدرج في العلوم حتي لاسياحات البحرية والقطبية . لان فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفارات المالية جاعلة لفقراء الامة وبعض الشؤون العمومية نصيباً غير قليل في مال الاغنياء بحيث اذا عاش المسامون مسامين حقيقة أمنوا الفقير